

## الماضي والحاضر

عندي أنّ الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان، يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أنّ الجمال في أمةٍ قد يكون قبحًا في أمةٍ أخرى، كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصرٍ آخر.

ليست الفضائل والرذائل أسماءً توقيفية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلةً إلا لأنها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلةً إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الفضيلة، وإن كانت صفة اللؤم، وحيث يكون الشقاء في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم إلى اليوم، أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتحللان، يكتبون على رأس أحدهما عنوان «الفضائل»، وتحت كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة، وعلى رأس ثانيهما عنوان «الرذائل»، وتحت كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة، وأرى أنه قد آن لهم يعلموا أنّ الناس اليوم غيرهم بالأمس، وأنّ أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وأنّ كثيرًا من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون مكانها، قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح، حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري، وأسسًا ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشئونه. فلا بد للناس منها، ولا غنى لهم عنها، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلمًا نظاميًا، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون له يده التي أسداها إليهم، فإذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحسن إليهم أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه، من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه، أو يرفهه عليه. أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه، فليس الكرم فضيلةً، وليس من الرأي الدعاء له، والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد. أما اليوم وقد ذلت النفوس وسفلت المروءات، فلبس ثوب الفقر غير الفقير، وانتحل البؤس غير البائس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعترضونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الحشف البالي، فالرحمة هي الفقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلةً يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه، ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد، أما اليوم وقد فترت هم الناس، ووهت عزائمهم، وماتت في نفوسهم الحفاظ والغير، ووكل كل أمره إلى صاحبه، فإن رأوه قائماً بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضي فيها، ثم وقفوا على كذب ينظرون ماذا يفعل، فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها، وإن فشل خذلوه، وتنكروا له، فالشجاعة جنون لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلةً يوم كان الفضل هو الميزان الذي يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرةً للشريف إذا عفت يده، وعزفت نفسه، والغنى معرفةً للدنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه. أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم إلا المجد المالي، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم، فالقناعة ذل الحياة وعارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلةً يوم كان الناس يعرفون فضيلة اللحم ويقدرونها قدرها، ويطأطئون رءوسهم إجلالاً لصاحبها. أما وقد أصبح الناس أشراً يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه، ولا يعجبهم

مثل الرأس الضعيف المتهاك الذي لا يحسن الزياد عن نفسه، فلا خير في الحلم، والخير كل الخير في الغضب.

الحياة معترّك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعًا إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة، وهو أضعف السلاحين وأوَاههما، فليس لذلك إلا معنًى واحد؛ هو أن يهلك أشرف الناس وفضلاؤهم في سبيل حياة أدنيائهم وأندالهم.

إنَّ الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص في هذا العصر، إنما هو حباله ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثرون بها من دونهم، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينتقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا إلى القناعة إلا ليقفل من سواد المزاحمين له على أغراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزايها. كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضًا بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبسم لعدوه وصديقه ابتسامةً واحدةً، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها، فلم نستقطع الطمع والجشع؟ وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده، فلم نشكو من الظلم والإرهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأننا نريد أن نستخدم الفضيلة في أعراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين في الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب، وأنَّ قصص الفضائل التي يقرءونها ونوادير المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها، إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضت عهدا، حتى لا يصبح ناظمًا على العالم يوم ينكشف له وجهه، ويرى سواته وعوراته، وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات.

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخائلها فوق ما أعلم يضعون للناشئ كتابًا مدرسيًا على نمط كتب التاريخ يوضحون لهم فيه كيف يكذب التاجر، ويغش الصانع، ويلفق المحامي، ويدجل الطبيب، ويختلس المرابي، ويرأى الفقيه، ويصانع

السياسي، ويتقلب الصحافي، ثم يقولون له: هذه هي الحياة، وهذا هو ما يجري فيها، فإن أردتها على علاتها فذاك، أو لا، فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه، وكل مما تأكل حشرات الأرض، واشرب مما تشرب منه، حتى يوافيك أجلك.

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم، وحامل السيف لا يغمده في غمده إلا أمام حامل سيفٍ مثله، والسييل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سدّاً يعترض طريقه، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غيبياً، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعضٍ إلا إذا برزوا جميعاً في ميدانٍ واحدٍ يتقلدون سلاحاً واحداً من نوع واحد.

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروفٌ لا ريبة فيه، فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلةً من وسائل العيش في عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هؤلاء الناس، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل.

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلّاتها، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها، ووأسفا على أيامها وعهودها!